قراءة جديدة لقصيدة فَزي وَزِي (Fuzzy - Wuzzy) للشاعر البريطاني رُودْيارْد كِبْلِينْغ

د. أوشيك آدم علي موسى

كلية زمزم الجامعية - السودان

المستخلص:

تعتبر قصيدة فزي وزي لشاعر الامبراطورية البريطانية الكبير روديار كبلينغ القصيدة الوحيدة عن السودان في الأدب الأنجليزي. استمدت القصيدة عنوانها من كتلة الشعر الكثيف الذي تغطي رأس المحارب البجاوي. كبلينغ كان واحدا من أعمدة الأدب الانجليزي وأول من حاز على جائزة نوبل للآداب في عام 1907 . تحاول هذه الورقة استرجاع هذه القصيدة في ضوء سياقها التاريخي والعسكري. يعتبر القائد عثمان، بشهادة المحللين العسكريين المحليين والأجانب، من أميز القيادات العسكرية لجيش المهدي بشرق السوددان ، وكان سببا رئيسيا في صد هجمات الجيوش البريطانية في شرق السودان، بالرغم من عدم تكافؤ الجيشين عدة وعتادا. استطاع عثمان دقنة أن يلحق هزيمة ساحقة بالريطانيين، وأشدها إيلاما كان كسرهم للمربع البريطاني، مفخرة المؤسسة العسكرية البريطانية. أدرك عثمان دقنة عدم جدوى مواجهة هذه القوة العسكرية الضاربة لذلك لجأ لتكتيك الكر والفر والمباغتة آمرا جنوده بالاختباء خلف الشجيرات والوديان ثم الهجوم المباغتة أثناء اقتراب الجيش الغازي منهم. تسببت هذه الهجمات في احداث ثغرات في المربع البريطاني نفذ من خلالها المحاربون البجاويون إلى داخل المربع مما اربك البريطانيين وجعل القتال وجها لوجه مما أوقع فيهم أعدادا كبيرة بين قتلى وجرحى. هذا الاستبسال والشجاعة جعلت البريطانيين جنودا وقيادة يعجبون بالروحة القتالية الجسورة للمقاتل البجاوي مما دفع الشاعر كبلينغ أن يؤلف فيهم قصيدته المشهورة « فزي وزي». تكونت القصيدة من أربعة أجزاء رئيسية في كل جزء منها إثني عشر مقطعا خلط فيها الجد بالهزل. يستهل الشاعر المقاطع بتمجيد لجيوش صاحبة الجلالة التي صالت وجالت في أصقاع العالم، ثم يدلف بين هنا وهناك في تمجيد المحارب البجاوي، ولكن بأسلوب هزلي لم يخل من نزعة استعلائية وعنصرية في كيف أن هذا الشخص البدائي البائس استطاع اختراق المربع الانجليزي، مهمة فشل فيها الفرنسيون والروس. انقسم البريطانيون في قراءتهم للقصيدة، بين مؤيد ومعارض لها، في حين أن النخبة السودانية احتفت بها وتبارت بترجمتها، حتى أن بعضهم اقترح أن تكون نشيدا قوميا للسودان.

Fuzzy Wuzzy- A new look at the poem of the great Victorian British poet Rudyard Kipling

Dr. Osheik Adam Ali Musa

Abstract:

The poem of "Fuzzy Wuzzy" was composed by the eminent British poet and novelist Rudyard Kipling in praise and respect of the Beja warriors of the Mahdist's army led by Osman Digna the most eminent Mahdi commanders. The title of the poem referred to the bushy hair style of Beja fighters in both comic and racist manner. The paper discusses the superiority of the British army, both in training and weapon over the Ansar army, yet Osman Digna, using a hit and run tactics was able to break through the British infantry square, a success failed to be achieved by rival French and Russian superpowers. The British soldiers and commanders were fascinated by the bravery and courage of these ill-equipped local fighters, a thing that inspired Kipling to compose his poem.

مقدمة:

عدت قصيدة فزي وزي لشاعر الأمبراطورية البريطانية الكبير روديارد كبلينغ من عيون الشعر الفيكتوري الذي جسد فيها الشاعر بطولات وشهامة المحارب السوداني، ولا سيما البجاوي في شرق السودان. فالقصيدة جسدت كثيرا من معاني الشجاعة والبطولة والفداء لأفراد جيش عثمان دقنة في ملاقاته المتكررة مع جيوش المستعمر البريطاني. فجاءت القصيدة كوصف لملحمة من ملاحم النضال السوداني الشرس ضد المعتدي. من خلال استعراض هذه القصيدة العصماء نريد أن نستحضر بطولات الماضي وانجازاته لشعب البجا، لا للركون إليه ولا لاجتراره، ولكن من منطلق أن الحاضر هو امتداد للماضي، وأنه في نفس الوقت جسر عبور للمستقبل المشرق. فمن لا ماضي له لا حاضر له ولا مستقبل .

لا يخفي علي الجميع أن إنجازات الماضي في شرق السودان كانت جزءا من القوالب التي شكلت جغرافية وتاريخ السودان الحديث، بالرغم من أن الأمر لم يجد ما يستحقه من توثيق و تقدير داخل السودان، كما وجد من الأعداء. واليوم نرى أن البجا تقاعسوا عن هذا الدور ليس على مستوى السودان عامة، وإنما على مستواهم المحلى. وآن الأوان الآن أن يستردوا هذا الدور لتكتمل استحقاقات المواطنة الحقة، ولن يحدث ذلك إلاّ بعد توحيد الكلمة ولم الشمل آخذين في الاعتبار أن الإنجازات الهامة في مسيرة الشعوب لا تحدث من فراغ، وإنما هي نتاج طبيعي لتلاحم القيادة مع القاعدة في تفاعل عضوي لا انفصام عنه.

لـذا نـود أن نسـتعرض، وبقـراءة جديـدة، قصيـدة فَـزِي وَزِي للشـاعر البريطـاني الكبـير روديـارد كِبْلِينْـغ التـي نظمهـا في فـترة هامـة مـن تاريـخ السـودان، وتاريـخ الـشرق بصفـة خاصـة. البجـا في تلـك الفـترة ضربـوا أروع الأمثـال للتضحيـة والاصطفـاف الشـعبي والانضبـاط العسـكري خلـف قيـادة عسـكرية وسياسـية ذكيـة اسـتطاعت أن تسـتثمر كل وقائـع الميـدان وتناقضاتهـا مـما أهلهـا لتنجـز نـصرا غاليـا، وإن لم يكـن حاسـما، عـلي جبهـة هامـة مـن جبهـات حـرب التحريـر ضـد الاسـتعمار البريطـاني، وهـي البوابـة الشرقيـة. تمثـل هـذا النـصر في أن قائـد المسـيرة آنـذاك، الأمـير عثـمان دقنـة، خـاض أكـثر مـن أربعـة عـشر معركـة ضـد المسـتعمرين ولم يخـسر واحـدة منها[1]،عـلاوة عـلى ذلـك اسـتطاع كـسر المربـع البريطـاني، في سـابقة تاريخيـة لم تسـجل مـن قبـل، وتسـبب في إربـاك وذعـر للقـوات البريطانيـة، وإحبـاط نفـسي ومعنـوي لهـم. وبالرغـم مـن أن عثـمان دقنـة، كـما يقـول محمـد إبراهيـم أبوسـليم[2]، كان أكـثر أمـراء المهديـة شـهرة في الخـارج، وفي الداخـل كان سـيد أرضـه، إلا أن هـذه الانجـازات العسـكرية الجليلـة لم تلـق مـا تسـتحقها مـن الاشـادة والتوثيـق مـن كتابنـا ولا مـن مؤرخينـا. وفي الجانـب الآخـر أسـهب البريطانيـون في وصـف هـذه المعـارك بتفاصيـل لا نجدهـا في أدبياتنـا السياسـية ولا التاريخيـة. محاولتنـا لقـراءة جديـدة للقصيـدة المعنيـة تهـدف إلي الإشـارة إلي أن مـن مسـتوجبات النـصر العسـكري والسـياسي تسـتوجب وجـود قيـادة منضبطـة متماسـكة واعيـة تسـتطيع لمّ الشـمل وتتنـزل للقواعـد أخـذا وعطـاءا لتحديـد الأهـداف المرجـوة، ووضـع آليـات التنفيـذ الممكنـة لهـا. في قراءتنـا لقصيـدة فَـزِي وَزِي علينـا أن نتطـرق لبعـض الجوانـب المرتبطـة بهـا.

الشاعر:

شـاعر قصيـدة فَـزِي وَزِي هـو البريطـاني رُودْيـارْد كِبْلِينْـغ الـذي ولـد بالهنـد عـام 6381وأُلحـق بمـدارس بريطانيـا. وبعـد تخرجـه رجـع إلي الهنـد مـرة أخـري ليعمـل مراسـلا حربيـا لصحيفـة في لاهـور(الباكسـتان الآن). وفي الهنـد بـدأت تظهـر مقدراتـه الأدبيـة، وعُـرف في تلـك الفـترة كواحـد مـن أميـز الأدباء والشـعراء البريطانييـن حيـث نـشرت أعمالـه الأدبيـة في كثـير مـن الصحـف والمجـلات، وطبعـت أخـيرا في شـكل كتـب منفصلـة. تعاطـي كِبْلِينْـغ الشـعر وكتابـة القصـة القصـيرة، ولا سـيما قصـص الأطفـال، ولكـن شـهرته كانـت أكـثرفي الأخـيرة مـما أهلـه لنيـل جائـزة نوبـل لـلآداب عـام 7091 ليكـون أول بريطـاني ينـال هـذه الجائـزة الرفيعـة .

مـن الناحيـة السياسـية صنـف كِبْلِينْـغ كواحـد مـن غـلاة المحافظـين (بتعبـير اليـوم) حيـث نصّـب نفسـه مدافعـا مسـتميتا للتـاج البريطـاني ومـبررا كل مـا تقـوم بـه بريطانيـا، والغـرب بصـورة عامـة مـن غـزو وحمـلات عسـكرية في أرجـاء العـالم. وكان مـن الذيـن يؤمنـون إيمانـا جازمـا بـأن لبريطانيـا رسـالة حضاريـة وأخلاقيـة في نـشر مفاهيـم المجتمعـات الأوروبيـة. هكـذا كان الاتجـاه السـائد في تلـك الأيـام وسـط كثـير مـن السياسـيين والعسـكريين الأوروبيـين، وربمـا إلي يومنـا هـذا. لذلـك لم يحفـي كثـير مـن الشـعراء المعاصريـن امتعاضهـم مـن الأعـمال الشـعرية لكبلينـغ لمـا تحملـه مـن مفاهيـم عنصريـة وامبرياليـة[3]، ولكنـه كان في عـصره كـما يقـول T.S Elliot ملـك الكلمـة بـلا منـازع[4].

القصيدة:

استمدت قصيدة فَزِي وَزِي إسمها من اسم الحيوانات المنزلية الأليفة ذات الشعر أو الفراء الكثيف. ربما اختار كِبْلِينْغ هذه التسمية لغرضين. الأول لتشبيه المحارب البجاوي الذي جمعتهم بهم معارك شرق السودان والذي تغطي رأسه كتلة كثيفة من الشّعر(تفة) بتلك الحيوانات. الغرض الثاني أراد كِبْلِينْغ أن يقلل من شأن هذا المحارب وبصورة استخفافية بتشبيهه بهذه الحيوانات المنزلية الوديعة التي يتلهى بها الأطفال. ويقول في ذلك:

E' s a daisy, 'e's a ducky, 'e' a lamb!

كما أراد كبلينغ أيضا أن يعطي انطباعا بأن هذا البجاوي شخص وديع ولا يمكن أن يكون مصدر خوف أو قلق في أي معركة، ومن ثم يمكن سحقه. غير أنه كان صائبا في تشبيهه الأول ومخطئا في تقديره الثاني، كما روت لاحقا مجريات المعارك والمواجهات الشرسة في شرق السودان. إذ أن هذا الشخص الوديع، كما تصوره أو تمناه كِبْلِينْغ، أصبح أشرس ما لاقاه البريطانيون في حروبهم المختلفة. لذلك يحكي أحد البريطانيين علي لسان جده الأكبر ممن شهدوا هذه المعارك، وأصيب بطعنة حربة في فخذه الأيمن « بأن محاربي هذه المناطق يمثلون بعض القبائل القليلة التي يخشي الإنجليز اللقاء بهم لشراستهم وبسالتهم:

"They were one of the few tribes the English feared to fight due to their aggressive nature."

ظهرت قصيدة فَزِي وَزِي أول ما ظهرت في 51 مارس 09 81، مع قصيدتين اخريتين. ونشرت للمرة الأولي في الدورية الاسبوعية سكوتس اوبزيرفر Scotts Observer. كتبت القصيدة بلغة إنجليزية كلاسيكية غير المتداولة في الوقت الحاضر، وهي لغة أشبه بلغة المعلقات في الأدب الجاهلي، وتميزت بأسلوب خلط بين الجد والهزل ممزوجان بقوالب من الاستهزاء والاستخفاف وبنعرة عنصرية. ويعلق بعض النقاد أن كبلينغ، بالرغم من أنه اجبر بإشادة المحارب البجاوي، إلا أن القارئ الحصيف يمكنه تلمس مرارة الهزيمة التي منيت بها بريطانية مبطنة في كلماته. اراد أن تكون مفردات القصيدة اقرب للغة التي يتحدث بها الجنود البريطانيون، وبالذات فيما يخص اسقاط بعض الحروف من الكلمات (e's a ducky, 'e' a)، وهنا ينطبق عليها القول الشائع: الأسلوب السهل الممتنع.

استقبل الوسط البريطاني القصيدة عند أول ظهورها بشعور تفاوت بين السخط والرضي. البعض صنفها علي أنها انجاز أدبي رفيع من شاعر مقتدر ملك ناصية الشعر وقوة البيان، كما قال الشاعر Elliot سابقا. في حين أن البعض الآخر، ولا سيما العسكريون، وبعض غلاة السياسيين، نظروا إليها وكأنها عمل ، وإن كان أدبيا بحتا، إلا أنه يعبر عن وجهة نظر سياسية وعسكرية من الدرجة الأولي، وأنه غير موفق من الناحية العملية والعسكرية، لأنه يحتوى علي تمجيد الأعداء واعتراف لهم بمقدرات قتالية تنتقص من مكانة الجندي البريطاني. وكِبْلِينْغ في قصيدته هذه كان يعبر عن رأي الجنود البريطانيين الذين رأوا في المحارب البجاوي رمزا للشجاعة والإقدام

" كان الانتحاريون البجاويون الذين كانوا يخترقون صفوف الجيش البريطاني ليلا ليسددوا طعنات قاتلة لجنود الحراسة الليلية ثم يواجهون الموت ببسالة ، كانوا بمثابة اعجاب وتقدير للجندي البريطاني"[5] ، وهذا أيضا كان رأي تشرشل[6] فيهم: "إنهم اشجع من سعى على قدم".

ومهما يكن رأي البريطانيين فيها إلا أنها، أي هذه القصيدة، وقصائد أخرى من شعراء بريطانيين فحول مثل نيوبولت (Newbolt) وماكقونقال (*McGonagall*)، تمثل لنا نحن في السودان قلادة شرف في عنق المحارب السوداني، ولا سيما البجاوي في شرق السودان، تحت قيادة قائدهم المقتدر عثمان دقنه، الذي قال عنه أندرو بول: « كان أذكي أمراء المهدية، رغم أنه لم يحظ بالموقع الذي يليق به لأنه استطاع أن يصمد أمام جيوش أعتي منه قوة وعتادا[7]، ووصفه دكتور عبد الله علي إبراهم بثعلب الصحراء على غرار القائد الألماني الشهير إرفين روميل الذي دوخ جيوش الحلفاء في شمال افريقيا في الحرب العالمية الثانية.. وللأسف هذه الانتصارات المتلاحقة لم تجد (بالصورة التي تستحقها) طريقها للمناهج السودانية بالشرح والاستنتاج المطلوبين.

تتكون القصيدة من الناحية البنائية من أربعة مقاطع رئيسية stanza، وكل مقطع من إثني عشر بيتا[8] . يستهل الشاعر قصيدته، وكما هو متوقع، بتمجيد وتفوق الجيوش البريطانية التي حاربت في اصقاع الكرة الأرضية. يقول قد حاربنا الروس في الكريميا، ونابليون فرنسا في موقعة وترلو الفاصلة، ومرورا بالبشتو في مرتفعات خيبر بآسيا الوسطي، وكذلك البورميين، وليس انتهاءا بقبائل الزولو الشرسة في الجنوب الإفريقي. فقد كان منهم، كما قال، من كان شجاعا ومنهم من لم يكن شجاعا، وكلهم لم يكونوا قدر شجاعتك أيها البجاوي لأنك كنت أشجعهم وأشرسهم.

We've fought with many men acrost the seas

But the Fuzzy was the finest o' the lot

القصيدة في الوسط الثقافي السوداني أول من نوه لقصيدة فَزِي وَزِي من المثقفين السودانيين هو الشاعر صلاح أحمد إبراهيم في ستينيات القرن المنصرم، حيث ضمن المصطلح في قصيدة له بعنوان « دبايوا» في ديوانه غابة الأبنوس في عام 1960[9]. ومن ثم عدد كبير من المثقفين السودانيين أولوا اهتماما كبيرا بالقصيدة وقاموا بترجمتها، منهم على سبيل المثال صلاح أحمد إبراهيم، غازي صلاح الدين، المؤرخ الكبير صالح ضرار، إبراهيم أحمد شلية،عبد المنعم خليفة خوجلي، ومعاوية محمد الحسن. وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على أهمية هذه القصيدة من الناحية الأدبية والوطنية لدرجة أن الدكتور غازي صلاح الذي ذهب أبعد من ذلك واقترح أن تكون النشيد الوطني للبلاد لما تحملها من معاني وطنية سامية.

الاعتراف الذي سجله الشاعر كِبْلِينْغ في قصيدته المشهورة، لم يكن منّة منه ولا من غيره، وإنما كان اعترافا انتزعه المحارب السوداني عن قوة واقتداروبتضحياته الجسورة على أرض المعارك، فضلا على أنه اعتراف لم يمنح لأحد من الجيوش التي حاربها البريطانيون في تلك الحقبة، إبتداءا من نابليون فرنسا في موقعة وترلو الفاصلة، ومرورا بالبشتو في مرتفعات خيبر بآسيا الوسطي و البورميين وانتهاء بقبائل الزولو الشرسة في الجنوب الإفريقي.

إضافة لذلك القصيدة، كما قال أحد المعلقين والنقاد عنها، إنها تمثل أول اعتراف بريطاني بهزيمتهم، حتي وإن لم تكن هزيمة عسكرية صرفة، إلا أنها تمثل إقرارا بإفشال مخططاتهم العسكرية واختراقا لتحصيناتهم الدفاعية المنيعة المدججة بقوة ضاربة بشتي الأسلحة النارية الحديثة، بما في ذلك المدافع الميدانية الثقيلة التي دخلت الميدان الحربي حديثا. يصف كِبْلِينْغ بسالة المقاتل البجاوي فيقول « ما لا قيناه من شراسة في حروبنا في خيبر وبورما وجنوب إفريقيا لم تكن إلاّ شربة واحدة (يعني بقة واحدة بالدارجي السوداني) من مشروب المياه الغازية، مقارنة بما تجرعناه من علقم في حروبنا في شرق السودان».

But we ever got from such as the

Was pop to what the Fuzzy made us swaller;

هذا اعتراف غال من مواطن بريطاني رصد المعركة عن كثب، ولكنه لم يتعود تمجيد الآخر، ولا سيما من يصفونهم بالبدائيين، ولكن الحق أبلج ولا يمكن نكرانه، حتي وإن كان من العدو، والخير ما شهدت به الأعداء. وفي هذا يقول القائد ونجت باشا في تقديمه لكتاب عثمان دقنة لجاكسون: إن معارك شرق السودان أكسبت البجاويين سمعة مستحقة كرجال شجعان، ولكنها شجاعة متهورة متعصبة. ويضيف قائلا وخلدت تلك السمعة عثمان دقنة في ذاكرة الرأي العام البريطاني في ثمانينات القرن التاسع عشر أكثر من غيره من القادة الكبار في تلك الحقبة[10].

كِبْلِينْغ ،الذي لم يكن عسكريا محترفا، غير أنه كان مراسلا حربيا كُلف بالتغطية الصحفية لمعارك بريطانيا في شبه القارة الهندية. لذلك يكون رأيه، حتي وإن لم يمثل القيادة العسكرية، إلا أنه رأي مطابق للواقع، ورأي من عرك المعارك رصدا ونقدا. وفي المقابل اعتراض بعض العسكريين على القصيدة جاء على خلفية الاستكبار العسكري البريطاني على أنها تحط من قدر جيش صاحبة الجلالة التي كانت جيوشها سيدة المعارك في ذلك الزمان .

الخلفية التاريخية للقصيدة :

في نهاية العقد قبل الماضي، واجهت بريطانيا مشاكل جمة في السودان، حيث اندلعت الثورة المهدية هناك، وأصبحت تدك معاقل خديوي مصر في السودان. انتصارات المهدي المتتالية في السودان أصبحت تهدد بقاء الاستعمار المصري الإنجليزي في السودان. بريطانيا في تلك الأثناء، وتحت قيادة حزب الأحرار، لم تكن متحمسة في التورط أكثر مما يجب في الشأن السوداني، وكان رئيس وزرائها آنذاك قلادستون يتمني أن يترك السودان وشأنه للمصريين. غير أن غوردون الذي كُلف بإخلاء جميع الرعايا الأجانب من السودان بعد انتصارات المهدية المتتالية، تعنت ورفض مغادرة قصر الرئاسة في الخرطوم، الذي حوصر فيه، فضلا علي شعبيته المتنامية في بريطانيا (لدوره الهام في دحر الجيش الصيني). كل ذلك أجبر بريطانيا أن ترسل حملة لإنقاذه سميت بـ « حملة إنقاذ غوردون» . أوكلت قيادة هذه الحملة للورد ويسللي الذي وصل إلي مشارف الخرطوم في 82 يناير 5881 ، فقط بعد يومين من اغتيال غوردون باشا. أجمع المعلقون العسكريون أن من الأسباب المباشرة التي أدت إلي حصار الخرطوم ومقتل غوردون هو الحصار الذي ضربه عثمان دقنه علي

طريق الإمداد الحيوي بين سواكن وبربر، والمعارك الشرسة الدائرة بشرق السودان. مقتل غوردون خلّف موجة عارمة من السخط الشعبي في بريطانيا، وانتقادا شديدا للحكومة والجيش لتقاعسهم عن نجدته في الوقت المناسب. زد علي ذلك عدم مقدرة الحكومة في تأمين موانئ البحر الأحمر. كل هذا شجع علي تورط بريطاني أكبر في الشأن السوداني. أخذا بهذه المعطيات الميدانية، سعت بريطانيا لتعزيز قبضتها علي السودان، ولفك الحصار المضروب من قبل جيوش المهدي للطريق الرابط بين بربر وسواكن.

تتالت هزائم المصريين والإنجليز في المعارك الساحلية، بعد سقوط سنكات المخزي، والمعارك الدامية في التيب وتوفريك، واستسلام حامية طوكر. لم يبق لبريطانيا نفوذ في شرق السودان غير حامية سواكن التي تحميها سفن الأسطول الملكي البريطاني. كل هذه الهزائم المتكررة حطت من سمعة بريطانيا مما أغضب الملكة وألب الصحافة والرأي العام ضد الحكومة. استجابة لكل هذه الضغوط وافق رئيس الوزراء البريطاني قلادستون، أن يرسل قوات إضافية إلي سواكن، ولكنها واجهت مقاومة شرسة من قوات عثمان دقنه في مواقع مختلفة علي الجبهة الشرقية، وقتل فيها أعداد كبيرة من الجانبين، وبالذات الجانب السوداني. كان من أهداف معارك شرق السودان هو تأمين حركة الملاحة في البحر الأحمر، ومن ثم تأمين تجارة الامبراطورية البريطانية مع الهند والشرق الأقصى. وكانوا يعتقدون أن احتلال جيوش المهدي للساحل السوداني سوف يهدد مصالح بريطانيا. الهدف الثاني للحملة هو تأمين إي انسحاب محتمل عبر البحر الأحمر للرعايا البريطانيين والقوات الأجنبية في السودان، إذا دعت الضرورة لذلك.

أظهرت وقائع الميدان أن التجهيزات العسكرية بين الطرفين لم تكن متكافئة بكل المقاييس. الجيش البريطاني كان يتفوق علي جيش الأنصار تدريبا وتجهيزا وخبرة، فضلا علي امتلاكهم قوة نارية ضاربة من بنادق ومدافع ثقيلة. وفي الجانب الآخر جيش عثمان دقنه، كغيره من جيوش المهدي، لم يمتلك من العتاد الحربي غير الأسلحة التقليدية من سيوف وحراب وعصي، وقليل من البنادق التي غنموها من الأعداء، غير أنهم أبدوا كفاءة عالية في استعمالها، كما وصف أحد البريطانيين من قوات القائد استوارت واحدة من تلك المعارك.» إن المواجهة الحقيقية كانت من البجاويين المسلحين بالحراب حيث يوجهون رماحهم بدقة متناهية، وفي الوقت المناسب نحو خيولنا فيصيبون منها مقتلا، كما كانوا يستعملون عصي معقوفة من السنط (السفروق) يصيبون بها ركبة الخيل، مما يقود إلي سقوطها وشل حركتها»[11]. ويضيف كبلينغ قائلا إنكم إن لم تكونوا بنفس قدر التسلح مثلنا إلا أنك أيها البجاوي أبديت مهارة فائقة في استعمال السيف وأنكم تستحقون شهادة تقدير واعتراف منا بذلك « ويجب أن نعترف بمقدراتك العالية (أيها البجاوي) في استعمال السيف.

“So we must certify the skills ‘e’s shown
In using’ of ‘is long two-‘nded swords”

يوضح هذا أن السلاح ، وإن كان بسيطا، إلا أنه يكون فعالا عندما يكون في يد من يجيد استعماله. لا يمكن التقليل من أهمية السلاح في حسم المعارك، غير أن العبرة بالروح القتالية للجندي والهدف الذي يحارب من أجله.

افتتن كبلينغ بجسارة المحارب السوداني، لذلك أراد أن يذكرهم بما هو متبع في الأعراف العسكرية، وهوأمر لم يشذ عنه القواد البريطانيون، في أنهم كانوا يكافؤون جنودهم الشجعان بشهادات تقدير وأوسمة ونياشين تقديرا لاستبسالهم في المعارك. ويستعيد هنا كبلينغ نبرته الاستعلائية مرة أخرى مخاطبا جيش عثمان دقنة بأنكم لا علم لكم (بسبب بدائيتكم وهمجيتكم) بهذه الاعراف العسكرية المتوارثة، لذلك يمكننا نحن أن نجهز لكم شهادات التقدير هذه.

,E'ans't got no papers of 'is own

E'ans't got no medals nor rewards

So we must certify the skill 'e's shown

المربع البريطاني:

ربما سمع الكثيرون بالمربع البريطاني ولكنهم يجهلون ما هو المقصود منه. فكرة المربع البريطاني هي تكتيك حربي بريطاني عريق يوفر الأمن والسلامة عندما يتحرك الجيش في أرض مكشوفة في مواجهة الفرسان والمشاة المسلحين بالأسلحة البيضاء(انظرأسفل لصورة المربع البريطاني). أثبت المربع جدواه في معارك كثيرة، وبالذات في حرب الكريميا مع الروس، ومع الفرنسيين في معركة وترلو الشهيرة. ولكن كفاءته القتالية أكثر جدوي في حال أن الخصم لا يمتلك قوة نارية رادعة، وأن المعارك تدور في أرض منبسطة. هذا ما كان ينطبق علي جيش عثمان دقنه في شرق السودان. كما يكون المربع أكثر فعالية عندما تكون ساحة المعركة أرضا مستوية خالية من الخيران والوديان والتلال الصغيرة، وهذا ما لم تكن عليه ساحات المواجهة بين الجيش البريطاني وجيش عثمان دقنة في تلال البحر الأحمر.

من الناحية العملية يوزع الجيش في التشكيلة العسكرية للمربع إلي مربع متساوي الأضلاع ، كل ضلع فيه يتكون من صفين أو أكثر من الجنود، من المشاة والخيالة (الفرسان أو راكبي الخيل) . يتفاوت عدد الجنود في كل ضلع ما بين 1000-1500 جندي ملتصقين ببعضهم البعض لمنع أي اختراق محتمل. داخل المربع يتحرك العتاد العسكري من مدافع وذخيرة، كما توجد بوسطه المؤن وحيوانات النقل، من جمال وبغال وحمير، ومعها المشرفون عليها، وكذلك بقية أفراد الجيش. بهذه التشكيلة يمكن تشبيه المربع بقلعة حصينة متحركة، حيطانها من الجنود وتحمي أركانها مدافع جالينغ وجاردنر الرشاشة، ومدافع الميدان زنة 7 رطل، التي تشكل قوة نارية كافية لتمطر كل واجهة للمربع، وتمزق أي هجوم محتمل للأنصار. كسر هذا المربع يحتاج لقوة مدفعية ضاربة تقضى على واجهته. وهذا ما لم يتوفر للقوات السودانية المهاجمة. إضافة لذلك أن الجنود في كل واجهة من المربع يتميزون بمرونة في الحركة السريعة يستطيعون فيها الإستدارة السريعة عند الحاجة لتكوين صف للرماية في حال ما وقع هجوم مباغت علي المربع. الجنود المصفوفون

كتفا بكتف في واجهات المربع الأربعة جعلوا اختراقه صعبا، إن لم يكن مستحيلا. إذا اريد احداث اختراق للمربع لا بد من إحداث ثغرة في احدى واجهاته. وما لعب دورا هاما في هذه الناحية هو طبيعة الأرض التي دارت فيه المعركة وهي كانت ملآي بالخيران والاودية والتعرجات الصخرية علوا وهبوطا، فضلا عن الشجيرات الشوكية مما يعيق الحركة السلسة للمربع. الامر المهم الثاني في اختراق المربع هو عنصر المباغتة الذي مارسه جنود عثمان دقنة عند اقتراب العدو منهم. تسبب هذا في ارباك في الجنود وفتح ثغرات في واجهة المربع تسلل من خلالها جنود عثمان دقنة إلى داخل المربع. وهذا ما عُني به بكسر المربع.

حصاد المعارك:

كما ذكرآنفا أن معارك السودانيين مع البريطانيين كانت تنتقص إلي التكافؤ والتعادل. تفوقت الجيوش البريطانية بالعتاد الحربي المتطور وبالخبرة والتجربة اللتان تراكمتا من خلال حروبهم في شتي بقاع العالم، إضافة لذلك أن قواد الجيش البريطاني الذين أرسلوا إلي السودان كانوا من النخبة وأفضل ما أنجبتهم المؤسسة العسكرية البريطانية أمثال بيرنبي وإستوارت وغراهام وماكنيل وبيكر وويسللي وغردون وغيرهم كثيرون الذين خاضوا حروب بريطانيا العظمي في شتي بقاع العالم . بسبب هذا الخلل في موازين القوي أصبحت المعارك الحربية مع البريطانيين في السودان مجازر أكثر من أنها مواجهات عسكرية كما قال شرشل[12]، وأكبر دليل علي ذلك موقعة أمدرمان (كرري) التي استمرت لفترة وجيزة وقتل وجرح فيها من الأنصار أكثر من 62 ألف سوداني مقابل 54 قتيلا و283 جريحا للبريطانيين. في هذه المعارك وغيرها من المعارك التي سبقتها والتي تلتها لم يقترب المحارب السوداني من البريطانيين أكثر من 004 متر قبل ان يردى قتيلا بسلاح ناري، ولكن بشهادة البريطانيين أنفسهم أن المقاتل السوداني أثبت كفاءة عالية عندما كان اللقاء وجها لوجه، ورجلا لرجل. لذلك يقول كِبْلِينْغ عن البجاوي « إنك صرعتنا عندما كان اللقاء وجها لوجه:

«But man for man the fuzzy knocked us ‘oller»

إضافة أنه كان يقاتل حتي الرمق الأخير كما قال فيهم كِبْلِينْغ في مكان آخر من قصيدته « إنه ممتلئ، أي المحارب البجاوي، بحرارة الصحراء وطعم الزنجبيل عندما يكون حيا ويكون أكثر خطورة عندما يحتضر».

E’s all ‘ot sand an’ ginger when alive

كِبْلِينْغ، كغيرة من عنصريي أوروبا، يُقحم تعابير الاستعلاء العرقي والديني مرة أخرى في وصفه للبجا، بأنهم همجيون ووثنيون ولكنه في النهاية يُجبر علي الاعتراف بأن الجندي البجاوي محارب من الدرجة الأولي وأنه رغم فقده لكثير من رفاقه إلا أنه يكفيه فخرا أنه كسر المربع الإنجليزي

“You’re a bore benighted ‘eathen but a first –class fightin’man For If you’ave lost more than us, you crumplede up the squre”!

من المعارك الهامة في تاريخ المهدية، وفي شرق السودان بصفة خاصة، معركة تأماي (ثمانية كيلومترات من الجنوب الشرقي لسواكن) في 31 مارس 4881، التي خلدها كِبْلِينْغ بقصيدته الشهيرة « فَزِي وَزِي » والتي كُسر فيها المربع البريطاني. تقول دائرة المعارف البريطانية عن هذه المعركة

أن الجيش الإنجليزي بقيادة سير غراهام، حامل وسام فكتوريا كروس(Victoria Cross) وهو أعلى وسام يُمنح لقائد ميداني، يتكون من 4500 بريطاني بين ضابط وجندي، و22 مدفع و21 مدفع رشاش، في حين أن جيش عثمان دقنه كان قوامه 01ألف شخص. تأكد عثمان دقنه، بحسه العسكري الثاقب، وبتحليله للمعارك السابقة، بأن المواجهة المكشوفة مع البريطانيين غير ذات جدوي، لأنها تعرض جيشه لوابل من السلاح الناري، لهذا أمر جنوده أن يختبئوا بين الشجيرات، وفي خور يجري بمحاذاة طريق سير المربع البريطاني والانقضاض عليهم في هجمة واحدة عندما يصبحون علي مقربة أقل من مأتي ياردة. وهنا تأتي أهمية معرفة طوبوغرافية أرض المعركة وهي أيضا من العوامل المساعدة في حسم المعارك. كان الهجوم مفاجأ وضاريا لدرجة أن هذه المباغتة لم تمكن البريطانيين من تركيز أسلحتهم الرشاشة التي أخطأ كثير منها العدو. لنقرأ هنا وصف غراهام للمعركة « مجموعة ضخمة من الوطنيين جاءت كسيل متدفق وهجمت بعزيمة لا تلين علي كتيبة اليوركشيرز واللانكشيرز، مما جعل المربع ينهار ويتخبط في فوضي تامة». الكر والفر وروح المبادرة والمباغتة التي ابتدعها عثمان دقنه غيرت أسلوب المواجهة بين الجيشين بحيث أصبح الرجال يتقاتلون فرادي أو في شكل مجموعات صغيرة، ولم يكن هنالك مجال لممارسة أي تكتيكات حربية سابقة، فالقتال أصبح إلتحاميا بالأيدي وبالأسلحة النارية والبيضاء في أشرس صورة يتخيلها الشخص. بعد حوالي نصف ساعة من هذا القتال الضاري استطاع غراهام، بفضل القوة النارية الحاسمة، أن يسترد تشكيل قواته بعد أن انسحب جيش عثمان دقنه بطريقة منظمة ومشرفة (كما قال أحد المعلقين) بعد كسرهم للمربع البريطاني، مهمة فشل فيها الروس والفرنسيون أكبر قوتوين عسكريتين في ذلك الزمان. محصلة المعركة مقتل أكثر من 021 ضابط وجندي بريطاني وأكثرمن 003جريح، مقابل 0004 بين قتيل وجريح من جيش عثمان دقنه. هذه المحصلة من القتلي والجرحي بين البريطانيين تعتبر أعلي خسارة للجيوش البريطانية في أي معركة من معاركهم في السودان[13]، بما ذلك معركة أمدرمان الشهيرة (كرري) التي قتل فيها فقط 54 بريطاني وجرح فيها 283ضابط وجندي. لذلك عندما يُدرَّس اختراق العدومن المؤخرة في كلية الأركان في كامبرلي ببريطانيا، يُستشهد هنا بتكتيكات عثمان دقنة كنموذج في معارك التيب وتأماي وتوفريك وخور شمبات. وكالعادة يحاول البريطانيون تبرير هزائمهم دائما. يقول تشرشل منتقدا حملة غراهام ومن خلفها الحكومة البريطانية:» لقد تمت المذبحة (أي عدد القتلى الكبير بين الجانبين، ولا سيما البريطاني)، وكما حارب غراهام بلا هدف فإنه انتصر بلا ربح»[14]. كثير من المعلقين يتفقون مع تشرشل في أن هذه الحملات لم تكن لها أهداف عسكرية، والغرض منها كان سياسيا وتأديبيا لامتصاص غضب الشارع البرطاني في لندن. لذلك يقول بول» الجنود الذين حاربوا في هذه المعارك بلا هدف مقنع، وجدوا ما يعجبهم في شجاعة وإقدام أعدائهم البجاويين، أكثر من حكوماتهم البريطانية والمصرية التي أرسلتهم ليحاربوا من أجلها»[15].

من الأشياء التي لا يركز عليه المتابعون لتاريخ تلك الحقبة، بالرغم من توثيقها، أن المربع البريطاني كُسر مرتين، مرة في معركة تأماي الشهيرة في شرق السودان 31 مارس 4881، كما وُصف أعلاه، ومرة أخري في أبوطليح بالقرب من الخرطوم في 61-81 يناير 5881، ضد قوات القائد استوارت. المعركة الأخيرة استمرت فقط عشرة دقائق قتل فيها 67 بريطاني بين ضابط وجندي، واستشهاد 0051 شخص من قوات عثمان دقنة.

أكثر ما أحبط البريطانيين في هذه المعارك انهيار مربعهم الذي كانت مقدراته الدفاعية

تُراجع وتُعدل بعد كل معركة يخوضها الجيش البريطاني في كل أرجاء المعمورة، وفشل اختراقة الروس والفرنسيون أعظم قوتين حربيتن في ذلك العصر. لذلك لم يكن متوقعا أن يُكسر هذا المربع في أي مجابهة عسكرية، ناهيك عندما تكون هذه المجابهة مع قبائل بدائية (كما يصفونها) لا يملكون من عتاد الحرب إلا أسلحتهم التقليدية البسيطة. لذلك كان مخزيا ومحزنا للبريطانيين في آن واحد أن يروا مربعهم الأسطوري ينهار ويُخترق بهذه البساطة. بهذا الخصوص علق مسؤول بريطاني قائلا « إن بريطانيا شعبا وحكومة رأت في المربع البريطاني إنجازا عسكريا خارقا، ونموذجا للتفوق العسكري، وكونه ينهار أمام هؤلاء (الدراويش) يعتبر أمرا أشبه بالخيال:

"British army and its public saw the square as and almost legendary symbol of its supremacy. That it might be broken was unthinkable"

هذه البسالة وهذه الشجاعة من المحارب البجاوي لم تترك في نفوس البريطانيين ضباطا وجنودا غير الإشادة والتمجيد، كما رفعت الحرج عن كِبْلِينْغ ليخلدهم بقصيدته المشهورة فَزِي وَزِي التي ختمها بالأبيات التالية (ترجمة محمد إبراهيم شلية) :

لم يحرك الغزاة فيه غير نفرة إحتقار
لذا نزجي إليك مدحا في بلادك السودان
فأنت في الحياة معدم وجاهل
ولكن في الحروب قمة الفخار
نهديك ها هنا تحية يا أشعث الإهاب
يا من حكي وعاء التبن رأسه الدهين بالغبار
وأنت الأسود الوثاب الساغب الحشا
لأنك اقتحمت صف الإنجليز في اقتدار

الخاتمة:

تعتبر قصيدة «فزي وزي» للشاعر البريطاني الكبير روديارد كِبْلِينْغ من عيون الشعر الفيكتوري والقصيدة الوحيدة عن السودان في الأدب الانجليزي. جسد الشاعرمن خلال هذه القصيد قوة وعظمة جيوش الامبراطورية البريطانية العظمى التي لم تقهر بفضل قادتها العظام ومقدراتها الهجومية والدفاعية، لعل أهمها ما سمي بمربع المشاة البريطاني، وهو تكتيك حربي يتحرك فيه الجيش في شكل مربع كامل التحصينات الدفاعية. ولكن قائد جيوش المهدي في شرق السودان الأمير عثمان دقنة، وبعقليته العسكرية الثاقبة، ألحق بهذه القوات نكسات كبيرة أهمها كسرمربعهم البريطاني، مفخرة جيوش صاحبة الجلالة في سابقة لم تقدر عليها أعتى قوتين عسكريتين في ذلك الوقت، هما الروس والفرنسيين. هذه الأحداث هي التي ألهمت كِبْلِينْغ أن ينظم قصيدته المشهورة « فزي وزي» تمجيدا واعترافا بشراسة وبسالة الجندي السوداني، ولا سيما البجاوي. من خلال القصيدة يمكن تلمس مرارة الهزيمة التي منيت بها الجيوش البريطانية ولا سيما على يد محاربين بدائيين (دراويش، كما ينعتونهم) لم يمتلكوا من عتاد الحرب غيرالأسلحة التقليدية. اسلوب القصيدة خلط بين الجد والهزل والاستخفاف العنصري في وصفه للمحارب البجاوي، ولكن كبلينغ، ومن خلفه ضباط وأفراد الجيش البريطاني، اجبروا للاعتراف بشجاعته واستماتته في حربه معهم.

التوصيات

- الاستعانة بواحدة من ترجمات القصيدة واختيار مقاطع منها وتلحينها لأطفال المدارس كمادة من مواد التربية الوطنية.
- تعميم هذه القصيدة للدارسين العسكريين والاكاديمين للامام بتاريخهم النضالي في فترة المهدية.
- تشجيع كتابنا وشعرائنا لقراءة القصيدة نقدا وتحليلا للوقوف لأدائها الفني وكذلك لاستنباط الدروس والعبر منها.
- لامناشدة كلية القيادة والأركان المشتركة بأمدرمان إدراج تكتيكات عثمان دقنة الحربية، إن لم تكن مدرجة أصلا، في حربه مع الجيوش البريطانية كما هو مطبق في كلية الأركان البريطانية بكيمبرلي.
- تشجيع فنانينا وسينمائينا لقراءة القصيدة ومحاولة التفكير في تجسيد وقائع تلك الحقبة في أعمال مسرحية وسينمائية، كفيلم الريشات الأربعة.
- محاولة تصوير وقائع تلك الحقبة في عروض ثلاثية الأبعاد وفي شكل بنورامي كما هو متبع في المتاحف الحربية في العالم.

صورة للمربع البريطاني مأخوذة من الفيلم السينمائي « الريشات الأربعة - The four feathers»

الهوامش:

(1) عبد المحمود نور الدائم الكرنكي، السودان أصل الحضارة، أبطال السودان.... فخر بلاحجود، 7102

(2) محمد إبراهيم أبوسليم: مذكرات عثمان دقنه، دار الجيل، بيروت، ط2، 8991.

(3) http://w.w.w.poetryfoundation.org.

(4) T.S Elliot, Excerpts from Rudyard Kipling, on Poetry and Poets. London, 1957

(5) أ. بول: تاريخ قبائل البجا بشرق السودان، ط2، د. أوشيك آدم على، مطبعة التراضي، الخرطوم، 7102 ،ص98

(6) جاكسون، هنري ، سيسل : عثمان دقنة ، ترجمة بدر الدين حامد الهاشمي، دار المصورات الخرطوم، 1202.

(7) أ. بول: مصدر سابق ص، 58

(8) https:// poemanalysis.com,fuzzy wuzzy

(9) عبد الله على إبراهيم: الفزي وزي البجا: بين كبلنغ وصلاح أحمد إبراهيم (1102)، //http www.sudaress.com- sudanile

(10) جاكسون، هنري سيسل ، عثمان دقنة، مصدر سابق.

(11) أ. بول مصدر سابق، ص 78.

(12) جاكسون، هنري سيسل، عثمان دقنة ، مصدر سابق.

(31) جاكسون، هنري ، سيسل : عثمان دقنة ، مصدر سابق.

(14) W.Churchil: River war, Skyhorse pulishing 1902

(15) أ بول: مصدر سابق ص، 88

المصادر والمراجع:

(1) عبد المحمود نور الدائم الكرنكي: السودان أصل الحضارة، أبطال السودان.... فخر بلاحجود، 7102 .

(2) محمد إبراهيم أبوسليم: مذكرات عثمان دقنه، دار الجيل، بيروت، ط2، 8991م

(3) أ. بول: تاريخ قبائل البجا بشرق السودان، ترجمة د/أوشيك آدم على، ط2، مطبعة التراضي، الخرطوم، 7102م ،ص،98.

(4) جاكسون، هنري ، سيسل : عثمان دقنة ، ترجمة بدر الدين حامد الهاشمي، دار المصورات الخرطوم، 1202م.

(5) أ. بول: مصدر سابق ص، 58

(6) عبد الله على إبراهيم: الفزي وزي البجا: بين كبلنغ وصلاح أحمد إبراهيم (1102)، //http www.sudaress.com- sudanile

(7) جاكسون، هنري سيسل : عثمان دقنة، مصدر سابق.

(8) أ. بول مصدر سابق، ص 78.

(9) جاكسون هنري سيسل : عثمان دقنة ، مصدر سابق.

(01) جاكسون هنري سيسل : عثمان دقنة ، مصدر سابق.

(11) أ بول: مصدر سابق ص، 88

المراجع الأجنبية

(1) 2091 gnihsilup esrohykS ,raw reviR :lihcruhC.W(1)

(2) yzzuw yzzuf,moc.sisylanameop //:sptth(2)

(3) .gro.noitadnuofyrteop.w.w.w//:ptth(3)

(4) oL .steoP dna yrteoP no ,gnilpiK drayduR morf stprecxE ,toillE S.T(4)ndon, 1957